

الموضوع السادس

السلطان عبد الحميد الثاني وفكرة الجامعة الإسلامية ١٨٧٦-١٩٠٩م

السلطان عبد الحميد بن عبد المجيد هو السلطان الرابع والثلاثون والخليفة السادس والعشرون من خلفاء بني عثمان . ولد في عام ١٢٥٩هـ وبالتحديد في ٢١ سبتمبر من عام ١٨٤٣م ونشأ في حياة مليئة بالكبت والحذر خصوصا وأن والده كان يكرهه ويفضل إخوته عليه (١) ، كما أن والدته قد توفيت ، وكان لا يزال في الثامنة من عمره ، يضاف إلى ذلك أن خلع عمه عبد العزيز ثم انتحاره ثم خلع أخيه مراد الخامس قد زادا من حذره وتخوفه ولو كان من أقرب المقربين إليه . ونتيجة لفقدان عبد الحميد لوالدته في الصغر عهد بحضانتها إلى عجوز من نساء القصر ، ثم إلى إحدى زوجات والده واسمها 'برلستوخانم' حيث لم تكن تتجرب أولادا فتبنته ، وأخذت في تربيته .

ونظرا لكل هذه الأمور مال عبد الحميد إلى العزلة والانفراد بنفسه ، وكان ينهرب دوما من إخوته ولا يشاركهم في ألعابهم ، وقضى أيام صباه بين الخصيان والعبيد والجواري (٢) ، وقد تولى عبد الحميد أمور السلطنة في ١٨ من شعبان ١٢٩٣هـ الموافق ٦ من سبتمبر ١٨٧٦م ، وكانت مدة حكمه اثنين وثلاثين (٣٢) عاما وخمسة أشهر وستة وعشرين يوما ، وهو من السلاطين العثمانيين القلائل الذين عمروا كثيرا وحكموا طويلا حيث مات عبد الحميد في العاشر من فبراير ١٩١٨م عن عمر يناهز الخامسة والسبعين عاما (٣) .

١- مؤلف تاريخي هام : عصر السلطان عبد الحميد ، وأثره في الأقطار العربية ، دمشق ، المكتبة الهاشمية ، الطبعة الثانية ، ج٣ ص ٦٥-٦٨ .

٢- الهلال : السنة السابعة عشرة من أكتوبر ١٩٠٨ إلى يوليو ١٩٠٩ ص ٥١٥-٥١٨ .

٣- مؤلف تاريخي هام : ص ٦٥ .

وقد واجهت السلطنة العثمانية في عصر عبد الحميد أزمت متعددة استغلتها الدول الأوروبية في إثارة القلاقل ضدها خصوصا في ولاياتها غير الإسلامية فحركت الفتن السياسية في كريت وصربيا وبلغاريا ، كما بدأت توجه التهديدات للسلطنة وتطالبها بالمسارعة في إجراء الإصلاحات يضاف إلى ذلك أن روسيا أخذت في إشهار الحرب على السلطنة لإجبارها على تعديل معاهدة باريس بغية الحصول على مكاسب إقليمية جديدة لها^(١) ، ورغبة منها في تخليص نصارى البلقان من حكم المسلمين باعتبارها حامية الأرثوذكسية في ذلك الوقت يضاف إلى ذلك رغبتها في تحقيق حلمها التاريخي في الوصول إلى المياه الدافئة^(٢) كل ذلك أدى إلى تكوين كتل مسيحية من "الروسيا" ورومانيا والجبل الأسود والصرب ضد الدولة العثمانية ، واتخذ الصراع بين الجانبين شكل الصراع الصليبي بين المسيحية والإسلام حيث ركز النصارى اهتمامهم على نسف الأحياء الإسلامية في المناطق التي اقتحموها ، وعلى قتل سكانها وهتك أعراضهم ، وتخريب المساجد^(٣) .

ونتيجة لذلك رأى السلطان عبد الحميد أن الوسيلة المثلى لمواجهة هذه الهجمات الصليبية هي جذب عواطف المسلمين إليه^(٤) ، والعمل على كسب ولائهم فبدأ في إحاطة نفسه بإطار من التقى والتقى ، كما بدأ يقرب إليه الفقهاء ورجال الدين الإسلامى^(٥) . يضاف إلى ذلك انه جنح إلى الاستفادة من منصبه كخليفة لتعزيز سلطته الدنيوية ، ودفع مؤامرات أوربا عن بلاده ومن هنا بدأ في الدعوة إلى الجامعة الإسلامية ، وتقريب مجموعة من علماء العرب وأشرف مكة إليه^(٦) ، كما اعتمد على الداعية الإسلامى جمال الدين الأفغانى فى الترويج لهذه الدعوة على مستوى العالمين العربى والإسلامى ، هذا إلى جانب قيام نامق كمال بتهيئة الأذهان فى أوساط المتحدثين بالتركية .

١- محمد جميل بهيم: فلسفة الحكم العثمانى ج٢ ، بيروت ١٣٧٣هـ/١٩٥٤م ص١٦٦ .

٢- محمود صالح منسى: حركة اليقظة العربية فى الشرق الآسيوى ، القاهرة ، دار الفكر العربى ، ١٣٩٥هـ/١٩٧٥م ص ٧١ .

٣- عبد العزيز الشناوى: الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها ج٢ ، القاهرة ، الأنجلو المصرية ، ١٩٨٠م ص١٠٧٤-١٠٧٥ .

٤- مذكرات السلطان عبد الحميد: ترجمة وتعليق محمد حرب ، القاهرة ، دار الأنصار ١٩٧٨ ص ٧ .

٥- جورج انطونيوس: يقظة العرب ، ترجمة أحمد حيدر الركابى ، دمشق ، مطبعة الترقى ص ٦٧ .

٦- بهيم : المرجع السابق ج٢ ، ص١٧٨-١٧٩ .

وأخذ السلطان على عاتقه تنفيذ النكرة عمليا ، وتيادتها بصفتها خليفة للمسلمين ، وعدها أعذب الآمال فى إنقاذ الدولة وإحيائها من جديد ، وخير سلاح يحارب به النفوذ الاستعماري الغربي الزاحف على العالم الإسلامى(١) .

وقد اتسعت دلالات معنى الجامعة الإسلامية فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر لتشمل مفاهيم عدة ، فبعض المصلحين رأى فيها دعوة للرجوع بالدين إلى ما كان عليه السلف الصالح وآخرون فسروها على أنها دعوة لتحديث المفاهيم الإسلامية وتطويرها وتفسيرها بشكل يساير تطور الحياة الحديثة ، ويتمشى مع المفاهيم الواردة من مدينة الغرب وثقافته وقسم ثالث رأى فى حركة الجامعة الإسلامية دعوة إلى إحياء الخلافة القرشية من جديد ، لكن من غير أن يكون لهذا الخليفة سلطة دنيوية بل يكون مجرد رمز دينى لوحدة المسلمين(٢) ، ثم امتزجت هذه المفاهيم عندما دعا الأفغانى إلى جامعة إسلامية تقوم على دعائم أساسية تتركز فيما يلى :

١ - ضرورة التمسك بالخلافة كنظام دينى ، ونظام سياسى حتى يمكن مقاومة التيارات الأوروبية التى اشتد ساعدها داخل بلاد المسلمين ، وتخليص العالم الإسلامى بعامة ، وأقاليم شمالى إفريقيا ، والشرقين الأدنى والأوسط بخاصة من السيطرة الأوروبية المالية والسياسية والعسكرية(٣) .

٢ - إيجاد حد أدنى من التضامن السياسى بين المسلمين ، لاستعادة ما فقد من ديارهم والحفاظ على ما تبقى بأيديهم منها(٤) .

٣ - الحج إلى المسجد الحرام فى مكة المكرمة حيث الكعبة المشرفة لما فى ذلك من تربية دينية تؤصل العقيدة ، وتثبتها فى نفوس المسلمين فى كافة أنحاء المعمورة(٥) .

وقد اتخذ الأفغانى فى سبيل نشر أفكاره وسائل عدة كالخطابة والكتابة ، ومقابلة الحكام ، وتكوين الجمعيات ، وعانى فى سبيل ذلك الكثير من مرارة النفى ومظاهر التضيق ، وظل مناديا بفكرة الجامعة الإسلامية برغم كل الصعاب ، ودعا المسلمين إلى

١- الشنارى : المرجع السابق ج٣ ، ص ١١٩٩-١٢٠٠ .

٢- أحمد فهد الشوابكة : حركة الجامعة الإسلامية ، الأردن ، الزرقاء ، مكتبة المنار ، الطبعة الأولى ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م ص ٥ .

٣- الشنارى : المرجع السابق ج٣ ، ص ١٩٨٣-١١٩٥ .

٤- الشوابكة : المرجع السابق ص ١٣٢ .

٥- الشنارى : المرجع السابق ص ١١٩٥-١١٩٦ .

الوحدة الصحيحة جاعلين أمامهم الأعظم في ذلك القرآن الكريم(١).

وفي الوقت الذي ظهرت فيه نكرة الجامعة الإسلامية ظهرت في أركان الدولة العثمانية حركات أخرى لمناهضة هذه الفكرة فظهرت حركة الجامعة الصقلبية ، وحركة الجامعة الجرمانية ، ونتيجة لذلك عمل السلطان عبد الحميد على توحيد العناصر المتعددة في الدولة من ترك وعرب وأكراد وغيرهم بهدف تكوين جبهة واحدة تستطيع الصمود أمام الأطماع الأجنبية ، فأحاط نفسه بمجموعة من الأكراد والأرمنوع وعنى بتربية أبناء العشائر تربية إسلامية ، كما رأى ضرورة امتداد أواصر الأخوة الإسلامية إلى كل مسلمي آسيا وإفريقية سواء في الصين أم الهند أم أواسط إفريقيا أم غيرها(٢) .

وعلى الرغم من أن هذه السياسة قد حققت بعض أهدافها واستطاعت أن تزعج بعض الدول الأوروبية مثل بريطانيا وفرنسا ، وكلفتها جهدا كبيرا في سبيل مقاومتها ، وأدت إلى إخراج موقفيهما(٣) ، فإن نجاح حركة الجامعة الإسلامية ظل مرهونا بتواجد السلطان عبد الحميد على العرش .

وحتى تزداد هيبة السلطان عبد الحميد الدينية بين المسلمين رأى ضرورة الاهتمام بتيسير أمور أداء فريضة الحج لهم عن طريق إنشاء خط حديدي بين دمشق والمدينة ، وقد قيل إن عزت باشا العابد - السوري الأصل والذي كان سكرتيرا ثانيا للسلطان عبد الحميد - هو الذي أدخل في روع السلطان إمكانية تقوية الخلافة بهذا المشروع الذي يمكن أن يشد من قبضة الدولة على الأماكن المقدسة ، ويعززها بإذكاء شعور المسلمين في مختلف أرجاء العالم هذا بالإضافة إلى تسهيل سفر الحجاج وتذليل ما يواجههم من صعوبات في ذهابهم وإيابهم(٤) .

١- عبد المنعم الجمعي : عبد الله النديم ودوره في الحركة السياسية والاجتماعية ، القاهرة ، دار الكتاب

الجامعي ، ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م ص ٢٤٢ .

٢- مذكرات السلطان عبد الحميد ص ٧ .

٣- بيهم : المرجع السابق ج٢ ، ص ١٧٩-١٨١ .

٤- الشوابكة : المرجع السابق ص ١٨١-١٨٦ .

وقد ظلت الدعوة إلى الجامعة الإسلامية تتأرجح صعودا وهبوطا وقرة وضعفا حتى حدثت ثورة تركيا الفتاة فى عام ١٩٠٨ وخلص السلطان عبد الحميد، فتعثرت حركة الجامعة الإسلامية فى مسيرتها^(١) خصوصا بعد تعصب جماعة الاتحاد والترقى للحركة الطورانية، وانسحاق الشريف حسين بن على وراء وعود بريطانيا بإقامة خلافة عربية ، وموقف المعارضة الشديد الذى اتخذته النصارى فى الولايات العربية ضد فكرة الجامعة الإسلامية^(٢) .

-
- ١- لوثرود ستودارد : حاضر العالم الإسلامى ج١ - ترجمة عجاج نويهض ، بيروت ، دار الفكر ، الطبعة الرابعة ١٣٩٤هـ/١٩٧٣م ص٣٠٥-٣٠٨ .
- ٢- الشناوى : المرجع السابق ص١٢٩٧-١٢٩٩ .